بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

٢

شعراء الوطن

معروف الرصافي – بشاره الخوري – وديع عقل – شبلي الملاط – الشيخ ابراهيم منذر

لا يذكر الناقد من شعراء الوطن اللبناني الا بشاره الخوري ، ووديع عقل ، وشبلي الملاط ، والشيخ ابراهيم منذر ؛ وهم اشهر من كانت الاوساط الادبية اللبنانية تتداول اسماءهم قبيل الحرب وبعيدها . يدلّ بذلك انه تابع ، في بلاد هجرته ، الاطلاع على آثار من عرفهم في طليعة شعراء لبنان ، عهدَ كان لا يزال في الوطن يقابل ويفاضل بين سبك فلان وصناعة فلان ... في تلك البيئة الادبية الانتقالية التي حاولنا تحديدها في القسم الاول من المقال[1] . وعليه فهو لا يذكر شيئاً ، ولم يكن من المنتظر ان يذكر شيئاً ، عن شعرائنا الشبان من الذين نبغوا بعد الحرب ، وتناقلت الجرائد اسماءهم حتى الى عزلة الاديب . ألم يطّلع على آثارهم اطّلاعاً كافياً ؟ أم انه يرى هذه الآثار لا تستحقّ درساً ادبياً ؟ ام انه يتسهّل في الحكم ريثما تضمحلّ العوامل الظرفية ويرى ما يكون من ثبات هذه الآثار على كرور الايام ؟ ام انه يهمل امر هؤلاء الشبان اذ لا يرى منهم من يجرؤ على منازعة شوقي « الإمارة » ؟ ومهما يكن من امر فان صفة الناقد

(١) راجع « مشرق » هذه السنة ، ص ٥٥–٥٦

الانتقالية فرضت عليه، دون ان يحلّل اسباب هذا الفرض، ان يختار اولئك الاربعة امثلة لشعراء الوطن.

وقد رأينا ان نقدّم على آرائه فيهم رأيه في شاعر عربي آخر، وان لم يكن من لبنان، فلا بأس بعده من شعراء الوطن، وهو معروف الرصافي، «اشعر شعراء سورية والعراق» في نظر الناقد، بل «ربما قصر عنه شعراء لبنان باستثناء «الاخطل الصغير» في طريقته ورقة عاطفته، لكن ليس له بلاغة الرصافي وحكمته ومتانة سبكه وجزالته.»[1]

نقول: هذا حكم غريب. وقد توقع الاديب ذلك من المطالع الساتر على الاحكام التقليدية، بل توقع ان يحدث هذا الرأي «ضجة بين الذين يؤخذون بالمتداول دون ان يكون لهم رأي مستقل مبني على البحث والتدقيق.»[1] واذًا فان من يعترب هذا الحكم يكون لا رأي له مستقل مبني على البحث والتدقيق.

ويطالب الاديب للرصافي بلقب «شاعر العراق» لانه اولى به من الزهاوي. وما الزهاوي في شعره الا «كالاستاذ امين الريحاني في كثير من الاحيان في نثره: فلسفة لا طائل تحتها وركاكة لا مثيل لها.»[2]

وهو يستشهد على شاعرية الرصافي برأي الشيخ عبد الله البستاني، وقد سأله عنه في السنة ١٩٠٩، فقال:

«بالرغم من انه في عنوان امره فهو من اشهر شعراء الطبقة الاولى وسيكون في مقدمتهم يومًا.» (اه.).

وكلنا يعلم ان الشيخ عبد الله البستاني من كبار اللغويين، وانه ينظر الى الشعر من هذه الناحية قبل كل شيء.

ثم يستشهد الاديب بقصيدة الرصافي في «التومبيل». والله يعلم، وارباب الذوق يعلمون ايضاً، قيمة العاطفة الشعرية في قصيدة «التومبيل»! وهناك عدة ابيات يوردها الاديب مثالًا على جزالة الرصافي وحكمته وليس فيها الا حقائق بديهية

١) الشعر والشعراء، ص ١١٦
٢) الكتاب: ص ١١٧

وحكم سائرة لا يخفى ابتذالها على الناقد نفسه، فيجتهد في ستره بقوله: «وانك سترى في هذه الابيات من جودة السبك والجزالة ومتانة القافية ما يشفع ببعض الابتذال في الحكمة...»[1] ويتكلم في مكان آخر عن «الاحتذاء المستحسن» الذي يأخذ به الرصافي. ويعتذر عن انه لم يشر الى سقطات شاعره لانه لم يتوفق الى الحصول على الديوان بكامله[2]. على انه لو توفق الى الحصول على ذاك الديوان الضخم لما امكنه الاشارة الى كثير من السقطات النظمية التي يفتش عنها في آثار الشعراء المنقودين احياناً كانواع السنادات، واشباع الحركة، واضطراب بعض القوافي؛ بل لامكنه ان يعمّ على الديوان بكامله الحكم «بالاحتذاء المستحسن» و«بجودة السبك والجزالة ومتانة القافية التي تشفع بالابتذال...»

وكل هذا لا يؤهل صاحبه الى تلك المنزلة التي حلّها الرصافي في نظر الاديب، الّا اذا قسنا الشعر بمقياسه، فاعتبرنا صاحبه في تلك المرتبة، «لان ليس بين الشعراء من توفق الفاظه وتعابيره بين سائر العصور كالرصافي. اذا قرأته لا تعلم اذا كنت تقرأ احد المخضرمين او المولّدين او العصريين.»[3] وهو قياس مادّي يظهر مفعوله خصوصاً في ختام درس الاديب للرصافي اذ يقول:

«ومجمل القول ان الرصافي شاعر من الطبقة الاولى لا ينقصه في شعره سوى العاطفة. — جيد الديباجة بليغ التعبير سهل التركيب لا يجيء في شعره بالجمل الاعتراضية ولا يعطف آخر كلمة في البيت على اول كلمة ولا يعلق معنى القافية بالبيت التالي — ومن حيث المعاني فبقدر ما يسمح له وسطه. ومن الحيف ان نطلب من ابن العراق ما نطلبه من ابن مصر.»[4]

ونحن اذا نظرنا الى هذا من عناصر الشعر فحسب، كنا والاديب الناقد على وفاق تام في ما خصّ الرصافي.

***

على ان هو نفسه لم يكتفِ بهذه العناصر في الحكم على قيمة الشعر، اذ

١) الكتاب: ص ١١٩
٢) الكتاب: ص ١٢٣
٣) الكتاب: ص ١١٦
٤) الكتاب: ص ١٢٢

عرض لشاعرية بشاره الخوري ، فحلّل ما فيها من عاطفة قويّة ، وتصوّر لطيف ، وتمثيل جميل قائلاً :

« اذا كانت المسرة تصعد الى الرأس فشعر صاحبنا « الاخطل الصغير » يخيم بين الخاطر والقلب ، ويشدّ اهتمامه الى العواطف والحواسّ كافة . ولا ترى عليه للتقليد من سمة فهو «ماركة مسجلة » لا تُقلَّد ولا تتقلَّد .»[1]

ثم اختار بعض ابيات من قصائد بشاره الخوري العاطفية « كآسي الحرب » و«مرثاة سعد زغلول » . وهو لو عرف مراثي الشاعر الاخيرة لاختار منها ابياتاً وابياتاً .

***

ومن « شعراء الطبقة الاولى » الذين قرنهم بالرصافي من حيث « فصاحة اللفظ وبلاغة التعبير » وديع عقل . الّا ان نصيبه من المعاني اوفر قليلاً من نصيب الرصافي . وهو ما انتبه له الاديب فقال : « هو في شعره بدوي المبنى حضري المعنى .» مؤيّداً كلامه بعدة ابيات من قصيدة الشاعر في يوبيل الشيخ عبد الله البستاني . وقد بلغ من تأثير بلاغتها في الناقد ان صاح :

« لو كلفت تشكيل اركان دولة البلاغة لقسمتها الى كتلتين : يمين ، ويسار . الاولى تمثل الشعر ، والثانية النثر . واقمت من عن يمين صاحب العرش – الشيخ عبدالله – هذا الشاعر البليغ . ولو اصف ادباء الارز لما حمل لواء الشعر في عقابه سوى اثنين : بشاره الخوري ، ووديع عقل – الاول برقته وسمة خياله ، والثاني ببلاغته وابتعاده عن التقليد والابتذال .»[2]

ننقل هذا تاركين الحكم فيه لمن سيكون من رعايا هذه الدولة !

الا ان الناقد ينعي على وديع عقل « كثرة تشاؤمه وامعانه في الشكوى والتنديد بالحكومة الوطنية والانتداب معاً »[3] . ولعلّه يغيّر حكمه اليوم !

وهو يرى ان لبنان اخطأ في ارساله الى مصر غير وديع عقل لتمثيله في مهرجان شوقي ، فيقول :

« ولو انتدب ادباء لبنان هذا الشاعر لمهرجان شوقي لتجلى للمصريين الادب اللبناني الحقيقي باجمل مجاليه ولكانوا اعترفوا لنا بامارة البلاغة كما اعترفنا لهم بامارة الشعر . –

---

١) الكتاب : ص ٦٢

٢) الكتاب : ص ١٠٩ – ١١٠

٣) الكتاب : ص ١١١

وقد سئمت النفوس ذكر مراتع الاحباب ، ومرابع الاتراب ، والطعن ، والضرب ، وامتزاج الدماء بالدماء ، والمسيح ومحمد ، والانجيل والقرآن ، والاتراك والاروام ، والموقف موقف ادبي محض وبلاغة وبيان . »[1]

***

ولا يحتاج المطالع الى كثير من الاطلاع ودقة النظر كي يشعر ان المقصود بكل هذه التلميحات شبلي الملّاط ، مندوب لبنان الى مهرجان شوقي . وكذلك لا يحتاج الى كثير من دقة النظر كي يشعر ان الناقد يختلف والملّاط على امور مهمة منها ما يمسّ الشاعرية المحضة ، ومنها ما يمسّ الحياة الاجتماعية بما تجرّه من صلات ومعاملات . وكان الشاعر قد اساء في ما مضى الى الناقد . فتزدّد هذا في الكتابة عنه حائرًا امام عاملين : « حبّ التقيّد بالنظر بالعين المجرّدة في اقوال كل من الشعراء ؛ وعاطفة مقابلة الاساءة بمثلها ، والانانية عريقة في الآدميين . »[2] الّا انه استأنف العمل تبعاً لنصيحة صاحب الهدى . واراد ان ينصف الشاعر الملّاطَ « لعلّه يعلّمه انصاف الناس . »[3] فلم تمنعه ذكرى تلك الاساءة من ان يخصص له وحده ٢٦ صفحة ، بعد ان خصّ بكل من الرصافي ووديع عقل ٧ صفحات ، وبكل من بشاره الخوري والشيخ ابراهيم منذر ٣ صفحات فقط . تتبع الملّاط في جميع حالاته ودرس اكثر مظاهر شعره ، بل اكثر مظاهر اخلاقه ، مشيرًا الى المناقضات الكثيرة والتقلبات الاهوائية ، والاغلاط التركيبية ، والمآخذ المتنوّعة ، اشارته الى كثير من المحاسن التي اتصف بها شعر الملّاط . وقد افرد قسماً وافرًا من نقده لتلك القصيدة البائية التي انشدها الشاعر في مهرجان شوقي ، ولمح اليها الناقد قبل هذا الكلام ، وهو يعتبرها من النظم العادي المبتذل الجدير بان يُمرّ به « مرور عابر طريق » ؛ لولا ما فيها من الضرب على وتر النعرة الدينية الاسلامية الذي خرج فيه الشاعر عن عقليته ووطنيته ، ونقض به كثيرًا من اقواله السابقة ارضاء للسامعين واثارةً للعواطف عن طريق

١) الكتاب : ص ١١٠
٢) الكتاب : ص ١٢٨
٣) الكتاب : ص ١٢٩

السياسة والنعرات[1] . . .

ويستند الناقد في احكامه كلها الى كثير من ابيات الملّاط ينقلها ويحللها ويذكر ظروف نظمها . ويلخص حكمه على الشاعر بفصل قد يكون من المفيد نقله ، وان كان طويلاً . قال :

« ان شبلي الملّاط شاعر فيّاض القريحة ، حسن التركيب ، سهل التعبير . وفي شعره طلاوة هي مزيته الاولى بحيث انك لو قرأت له كلاماً مقفّاة خاليـة من كل معنى لشعرت بروح الشاعر . لكن يتحتم عليك قراءة المنظومة بجملتها . فبالرغم من جودة السبك في قرادى الابيات ، لا تجد له ، لو تصفّحت ديوانه كلّه ، بيتاً واحداً بارزاً يشار اليه بالبنان . وقيامه بالشعر كقيامه بالوظائف . اذا جلست اليه تظن نفسك وحيداً لانه قلما يكون غير سابح بافكاره في الفضاء منشئاً الشعر ومترغاً باقواله او اقوال الشعراء المحدثين كابن عنّام وابي الطيب والبحتري وغيرهم . . . كثير التقليـد في شعره ، كثير الابتذال ، وكثير الاغلاط . وهو اقدر الشعراء في الالقاء والايماء . والضرب على وتر سامعيه الحساس ، يلبس لكل حالـة لبوسها ، ولا ترى اسلس من عاطفته قياداً يسير بها الى حيث يشاء ويدفع به الفنّ . »[2]

***

بقي الاشارة الى حكم الناقد على الشيخ ابراهيم منذر « شاعراً » . وقد قيدنا اللفظة ، كما قيّدها الناقد لانه لا يعنيه في كتابه الّا « الشعر والشعراء » . قال عن الشيخ المنذر ، منذ ثماني سنوات ، ما يلي :

« الشيخ ابرهيم منذر وطني غيور ، ولكن بتيه من التطرف في ظروف يجب معها على كل لبناني صميم سلوك سبل الاعتدال . وهو لغوي مدقّق مشهود له بطول الباع ، وان لم يدرك شأو البستاني واليازجي وغيرهما من ايمة اللغة . وكاتب مفكّر ، وربما كان ايضاً سياسياً محنكاً . ويمكن الشيخ المنذر ان يكون كل شيء الا شاعراً . »[3]

هذا ما كتبه سنة ١٩٢٤ . ثم تمرّ السنون ، وينظم المنذر كثيراً ، ويقرأ له الناقد ما ينظم ، ولكن رأيه لا يتغيّر فيه « من حيث الشاعرية . »[4]

وسنعرض ، في العدد القادم ، لآراء الناقد في شعراء المهجر .

---

١) الكتاب : ص ١٢٣ — ١٢٤
٢) الكتاب : ص ١٢٩—١٣٠
٣) الكتاب : ص ١٢٤
٤) الكتاب : ص ١٢٧